حديث.. مع الشباب

في تحقيق صحفي تقول إحدى الباحثات:

(إن صلة الرجل الفـرد بعـدد من النسـاء من الأمـور التي تبت فـيهـا الأحوال الإجتمـاعية. . فالنسبة ـ في رأي فضـيلة الشيخ الغزالي ـ بين عدد الرجال والنساء. . إما أن تكون متـساوية. . وإما أن تكون راجحة في إحدى الناحيـتين. . فإن كانت مـتساوية. . أو كـان عدد النساء أقل. . فـإن تعدد الزوجات لابد أن يخـتفي من تلقاء نفسـه. وستفرض الطبـيعة ـ ساعـتها ـ توزيعها العادل قسراً!

أما إذا كان عـدد النساء أربى من عدد الرجال. . فـسنكون إزاء واحدة من ثلاث:

١ ـ إما أن نقضي على بعضهن بالحرمان حتى الموت!

٢ ـ وإما أن نبيح اتخاذ الخليلات، ونقرِّ جريمة «الزنا»!

٣ ـ وإما أن نسمح بتـعدد الزوجات. ولأن المرأة ـ قبل الرجل ـ فـيما يرى الشيخ الغزالي ـ تأبى حياة الحرمان، وترفض فراش الجريمة والعصيان. . فلم يبق أمـامهـا إلا أن تشرك غـيرها في رجـل يحتـضنها. . وينسب إليـه أبناؤها. . ولا مناص بعـدئذ من الاعـتراف بمبـدأ «التـعدد» الذي صـرح به الإسلام شريطة أن يتحقق العدل. . فإن لم يتحقق العدل. . فلا تعدد هناك.

●●●

قلت ذلك للفتى المتحمس. . والذي وقف ـ يرضي غروره ـ زاعماً أن التعدد هو الأصل. .

ولما كان من المحبين للشيخ الغزالي.. فقد حاولت إفحامه بوجهة نظر الشيخ الغزالي تلك!

وإذا كان هناك من يرفض التعدد منساق وراء هواه فقد نجد أنفسنا أمام: تفريط.. أو إفراط.. يتقاضان الاقتراب من الآية الكريمة.. مستنيرين بما قرره المجربون.. فلعل ذلك مما يحسم القضية أو يكاد:

يقول الله (عز وجل): ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾[النساء: ١٢٩]

●●●

والآية الكريمة تخاطب الناس جميعاً.. والأزواج منهم بخاصة.. وتشمل شمولاً أوّلياً منهم:

أولئك الراغبون في التعدد.. حتى يراجعوا حساباتهم.. التي قد تنتهي بهم إلى صرف النظر عن فكرة «التعدد» إيماناً منهم بأن أحداً لن يجد الراحة عند أحد.. وإنما الراحة هناك عند نفسك الراضية.. وقلبك الوسيع.. ونقترب من الآية الكريمة متأملين مسترشدين بما قاله الثقات من العارفين: يقول (عز وجل): ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩].

●●●

الآية الكريمة تدل على اهتمام الإسلام بالواقع.. لا واصفاً.. وإنما كاشفاً عن الأسباب.. ثم محاولة علاج الانحرافات.. أما نحن اليوم:

فنحن فقط نحبّر الصفحات عن التعدد وزسبابه.. دون أن نقدم العلاج.. إننا فقط منساقون وراء أهوائنا التي استبعدتنا حين أبعدتنا عن الفهم المصحح.

يقول المغرضون:

١-أ باح الرسلام التعدد

٢- ثم اشترط فيه العدل.

٣- ثم حكم بأنه غير مستطاع؟!

ولكن الصحيح زن يقال:

المطلوب هو: العدل المستطاع وهو:

المساواة في الحقوق والواجبات..

أما عدل القلوب.. فغير مستطاع.

●●●

من آثار التعدد:

إذا كانت الطبيعة من حولنا تنطق بلسان الحال:

إن الورقة تسقط.. وتبقى الشجرة.. لتجدد شبابها في ربيع قابل..

إذا كان هذا هو منطق الطبيعة.. فإنه وفي العلاقات الإنسانية.. يكون الزمر بالعكس:

فبعض الأزواج يرغب في تجديد الفراش منطلقًا من رجولة متسلطة..

أو من فحولة جائرة: يقول:

(إن الحياة قد كلفت الذكر بأن يمد الحياة.. ولذلك جاء قويًا.. أكبر حجمًا.. أقدر على المطاردة. والمنافسة والمشاجرة).

مظاهرة سلمية في بيت النبوة

يقول الله (عز وجل): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

قصة نزول الآيتين:

الآيتان الكريمتان أمر للرسول (ﷺ) بالشفقة على أحق الخلق بها وأهلها وهن: زوجاته (ﷺ).. وذلك عندما اجتمعن فقررن المطالبة بزيادة النفقة بعد ما كن صبرن على شظف العيش زمانًا طويلاً.

والقصة كما رواها الإمام أحمد عن جابر (رضي الله عنه) قال: أقبل أبو بكر (رضي الله عنه).. يستأذن على رسول الله (ﷺ) والناس ببابه جلوس والنبي (ﷺ) جالس فلم يؤذن له.

ثم أقبل عمر (رضي الله عنه).. فاستأذن.. فلم يؤذن له. ثم أذن لأبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) فدخلا.. والنبي (ﷺ) جالس وحوله نساؤه وهو (ﷺ) ساكت.

فقال عمر (رضي الله عنه): لأكلمن النبي (ﷺ).. لعله يضحك فقال عمر (رضي الله عنه) يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - زوجة عمر - سألتني النفقة آنفًا فوجأت عنقها.

فضحك النبي (ﷺ) حتى بدت نواجذه وقال: «**هن حولي يسألنني النفقة**» فقام أبو بكر (رضي الله عنه) إلى عائشة ليضربها.

وقام عمر (رضي الله عنه) إلى حفصة: كلاهما يقولان: تسألان النبي (ﷺ) ما

ليس عنده؟! فنهاهما الرسول (ﷺ)، فقلن: والله لا نسأل رسول الله (ﷺ) بعد هذا المجلس ما ليس عنده.

قال: وأنزل الله (عز وجل) الخيار وبدأ بعائشة (رضي الله عنها) فقال: «**إني أذكر لك أمرًا.. ما أحب أن تعجلي فيه.. حتى تستأمري أبويك**» قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ الآية.. قالت عائشة (رضي الله عنها): أفيك أستأمر والدي؟!

بل أختار الله (تعالى) ورسوله وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت. فقال رسول الله (ﷺ): «**إن الله (تعالى) لم يبعثني معنفًا ولكن بعثني معلمًا ميسرًا. لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها**».

●●●

ولنا هنا وقفات:

١- إن الناس أبناء الدنيا.. فلا جرم أن الناس يحبون الدنيا.. وزوجاته (ﷺ) ناس من الناس.. فيهن رغبة في الدنيا ولهن تطلع إلى متاعها. ولو اختفى هذا الدافع فزهدن في الدنيا زهدًا مطلقًا لجاز لكل امرأة بعدهن أن تتعلل في تعلقها بالدنيا.. بأن زوجاته (ﷺ) لم يكن بشرًا.. بل كن ملائكة يحفظن.. ولا يقاس عليهن من حيث يستحيل على البشر أن يرتفعوا إلى أفق الملائكة. فلما طالبن بزيادة النفقة، دل على أنهن من الناس.. فيهن ما فيهم من تعلق بالدنيا.. ورغبة في الاستمتاع بها.. وإذا كان هناك من فارق فهو: أنهن يطالبن حين يطلبن.. لا عن تعنت.. وتحد.. وإنما الأمر على ما قيل: أبت السماوات والأرض إباء إشفاق لا إباء تكبر وشقاق!!

٢- ولاحظ موقف والد الزوجة في شخص أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما).

إن انحياز الوالد للزوج.. إنما هو لحساب الزوجة أولاً وأخيراً.. من حيث كان ترضيـة لزوج يأسره الجميل.. فيهب للدفـاع عن زوجته.. أمام أبيهـا. لا كما يحدث اليـوم من دفاع والد الزوجة عنهـا بالحق وبالباطل مما يزيد القضية تعقيداً!!

●●●

درس في التربية:

٣ـ كان في موقف أبـي بكر وعمر (رضي الله عنهما) ما يكبت في صـدر الزوجة رغبة فطرية، كبتًا يؤذن بالإنفجار من بعد.. أو تتسرب به العقد النفسية في الأعماق. ولكن الرسول (ﷺ) مع ترحـيبه بموقفهما يتـصدى للنزعة الكابتة من قبل الشيخين، ثم يفـسح الطريق أمام الرغبة الفطرية لتعبـر عن نفسها. وتلك واقعية الإسلام التي لا تواجـه الدافع المنساب من أعماق النفس يطلب الإشباع، حـتى لا يرتد حسيراً ليـكون من بعد عقدة نفـسية تنتهـز الفرصة المواتية لتصفي حساباتها.

●●●

ودرس في الدعوة:

٤ـ وإذا سولت الغيرة المشروعة لعائشة (رضي الله عنها) أن ترجو كتمان اختيارها عن بقية أمهات المومنين لتبقى في الطليعة ودائمًا فإن الرسول (ﷺ) يؤكد أنه داعية إلى الله. والداعية مـيسر لا معسر ومن صميم وظيـفته أن يعين المدعو على الإلتزام ليـزيد المهتدون واحداً. ومـا أكثر الذين يحـاولون وضع أسئلة الامتحان معقدة راغبين في أن تكون شخصياتهم مرهوبة: والمطلوب منهم أن ييسروا.. لا أن يعسروا!!

من الفرش.. إلى العرش

يقول (عز وجل) في سورة الأحزاب: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾ [الأحزاب: ٢٨, ٢٩].

من مقومات الجندية الإسلامية أن يكون للقيادة المؤمنة عون على أمر الله:

لقد أحس عمر (رضي الله عنه) بأن الرسول (ﷺ) يغالب ظرفًا صعبًا.. وإذا كان إدخال السرور على قلب المسلم أدبًا إسلاميًا فكيف إذا كان قلب الرائد الذي لا يكذب أهله؟ إن إدخال السرور عليه يكون أولى.. من حيث كان غمه مانعًا من خير كثير تحرم الأمة منه.. بقدر ما يكون السرور بابًا إلى خير كثير.. ثم إن الجندي ـ عمر (رضي الله عنه) ـ ينسى همه مع زوجه ليذوب في هم الرسول (ﷺ) وهو ماض على نفس الطريق الذي مضى عليه رفيقه الصديق.. عندما عرض نفسه للخطر فداء الرسول ليلة الهجرة الذي كان الإضرار به إضرارًا بالأمة كلها.

●●●

التعاون على البر:

لقد تعاونت كل الأطراف المعنية على إثبات أن الحق لم يكن في جانب الزوجات الطاهرات. فاستأنف السفين سيره باسم الله في ظل هذا التعاون وما زلت أذكر أم الزوجة التي أفسدت ما أبرم الرجال من إصلاح بقولها: ابنتي لا تخطئ، وكان من حق قسيمتها أن تقول: لا.. بل ابني هو الذي لا يخطئ! ويتحول الموقف إلى تئق.. ومئق.. وإذن فيستحيل علينا؟؟ أن نتفق!

ذلك بأنه إذا تـعـصب كل طرف لـولده.. وإذا لم يخطئ أحـد من الزوجين.. فالذي أخطأ هو أعـضاء مجلس الصلح؟! الـذين تركوا المشكلة عائدة إلى حيث بدأت.. بل زادت تعقيدًا في هجمة التعصب الذي برئ منه أبو بكر وعـمـر (رضي الله عنهما).. حيـث آثرا الحق على الهوى فكانت في النهـاية لصالح ابنتيهما قبل أن تكون لصالح الزوج!

●●●

ومن فقه الآية الكريمة:

ولاحظ واقـعيـة الإسـلام في عرضـه (ﷺ) حين قـدم اقتـراح إرادة الدنيا.. كما ذكرته الآية الكريمة.. على إرادة الله ورسوله والدار الآخرة.. لا إيثارًا للأول على الثـاني. وإنما هي الواقعـية التي تقدر مـيل الإنسان إلى العاجلة.. وهذا حقه.. ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾.

أما واجبه فـهو: إدراك تكاليف بيت القيادة ونصيبـه الأوفى من الصبر والتضحية إيثارًا للمبادئ على المنافع.

وكانت خطبـته (ﷺ) هي الأخذ بأيدي أمـهات المؤمنين إلى التي هي أقوم..

●●●

من مفردات هذه الخطة:

التلميح بزوال الدنيا.. التي هي مجرد زينة: طلاء لا يصبر على البقاء!

والعاقل ينأى بنفسه عن الوقـوع في شرك الفاني.. والذي يحرمه من سعادة الأبد في دار هي الحيوان.

والأمر أولاً وأخيـرًا على الاختيار.. وليس على الإجـبار. وعلى كل

واحدة أن تختار ما يحلو لها.. وعلى كل إنسان أن يتحمل نتيجة اختياره.. وحده.

●●●

من خصائص الزوج الصالح:

وتبدو ملامح الزوج الصالح الوفي فيما ذكرته الآية الكريمة، فالآية الكريمة لا تقول: اقبلن.. وإنما تقول: تعالين والمراد هنا أن تكون الحركة رأسية.. وليست أفقية: حركة إيمانية صاعدة في جو السماء: من الفرش.. إلى العرش.. بمعنى تعالين.. ارتفعن.. عن وخامة الأرض وطينها فمكان المؤمن هناك في السماوات العلى.

الأرض ميدان البلابل للترنم والغناء
والقبة الزرقاء ميداني إلى غير انتهاء
أنا سائر بين الصخور وموطني عرش الهواء
لا يبتني الشاهين وكراً.. إن موطنه السماء

ويبدو الزوج وفي معمعان الأزمة يبدو ثابت الخطو رابط الجأش.. متحملاً قسوة الموقف كأنه شيء يألفه. فلو اجتمعن عليه جميعًا ما ضره ذلك.. ولا حرك في رأسه شعرة واحدة.

بل إنه سوف يحسن إليهن مقدراً عشرة الأمس.. غير فاحش ولا متفحش من مثل ما يحدث اليوم في معارك الفرقاء.. والتي تأكل الأخضر واليابس.. وإنما هو الإحسان وبالذات لحظة الخطر.. شأن من يترك للصلح موضعًا.. مبقيًا على بقية من الود.. فلعل المياه أن تعود إلى مجاريها حين تعطي القوس باريها.

إن الزوج هنا كما يقولون: «يشتري» ولا يبيع يحاول أن يسدد الخطى

على الطريق . . فـراراً من مرارة الطلاق . . أو الفـراق . . إنها صـورة الوفاء يتمثلها الرائد الذي لا يكذب أهله : (ﷺ) . . الوفاء لعـقدة النكاح وللميثاق الغليظ . . وبخاصة في اللحظة التي يتعرض فيـها الزورق الصغير للعواصف الهوج . . فيتجاوزها الملاح الماهر . . ليستقر على الشاطئ الآمن .

أم الزوج
بين الحماية والحمية

سـقى الله أيامًا كـان البـيت فـيهـا هو سكن العـائلة الكبـير: الجـد والأولاد.. والأحـفـاد.. وكـــانت «الحـمـاة» «والدة الـزوج» وكـان الحم «والده».. كـانا يشكلان خط دفاع.. خط «حـماية» لزوجـة الابن.. التي تظل في تقديرهمـا منطقة محرمة.. مـحظور على أحد أن يقتحـمها.. أو يجترئ عليها، وحتى الزوج نفسه ـ وهو ولدهما ـ كان يعمل لهما حسابًا.. قبل أن يظلم زوجته!

وقبل ذلك كانت أم العـروس تقول لها وهي تتخطى عتـبة الدار ذاهبة إلى رجلها.. كانت تقول لها: إنك تفارقين أمًا هي: أنا التي ولدتك.. إلى أم.. هي حماتك.. التي ولدت لك.. ولدت لك زوجًا لم تعاشريه.. في بيت لم تدرجي فـيه.. فكوني للبـيت كله أرضًا.. يكن لك سـماء تمطرك بالأمان والـقرار.. فرصـيدك من الخـير الذي تفـعلين راجع إليك منه الحظ الكبير.

وهكذا كانت الوقـاية من مشكلات المستقـبل.. خيرًا من عـلاجها.. فوفى الله (تعالى) الأسرة بما عملت.. أمـانًا واطمئنانًا.. نجاها الله (تعالى) به من مثل مـصير أولـئك الذين يبنون دورهم فوق البراكـين.. وفي منطقة الزلازل.

●●●

مدرسة البر:

إنها إذن مـدرة البر: بر الآباء بالأبناء.. والذين يستجلبون به سعادة الدارين.. في الآخـرة.. بالثـواب.. وفي الـدنيـا ببـر الأبـناء.. وفـاء بالجميل.. وهي مـدرسة لها قانونهـا وهو: أن يكون والدا الزوج: أبًا وأمًا للزوجة بمقـتضى القـانون: ووالدا الزوجة للزوج كـذلك.. إلى الحد الذي يؤلف بين قلوب العائلتين فـي «مصاهرة» تصهـرهما.. ليخرجـا من تجارب الحياة انصع جوهرًا.. وأصبر على لأواء الحياة.

●●●

مدرسة العقوق:

وفي مـواجهة مـدرسة الـبر.. تحاول «مـدرسة العـقوق» أن تـفرض وجودها في شخص «حـماة» قد تتخلى اليـوم عن وظيفة الحماية.. لتـصير حـمة تلدغ وتلسع.. أو على الأقـل حمـو الشمس وحـموها.. في شـدة حرارتها. وقد تشتد وطأة «الحماة» مدفوعة بمثل غرور الشاعر القائل:

ونرعى حـمى الأقوام غـيـر محـرم

حمـاها علينا.. ولايرعى حـمانا الذي نحـمى

وفي هذا الجـو المكفهـر.. يكثـر التطاول.. والادعاء.. فـإذا رحت تفض هذا الاشتبـاك سمعت من كل طرف عن قيم.. نـدعو لها.. لكن لا نمارسها.. وأخرى نمارسها.. بيد أننا لا ندعو إليها!

ومن خلال هذا الصخب.. وهذا الادعاء.. يوافـيك من بعيد صوت الزوجة الشابة..

وهي تتغنى خارج السرب بهذه الأبيات:

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني
إن النفيس غريب حيثما كانا

●●●

موقف المصلحين:

وفي الوقت الذي تخلع فيه الزوجة الشابة آمالها في تحقيق أحلامها.. يحين الوقت لتدخل الحكمـاء: من أهلها.. ومن أهله .. في الوقت الذي صار فيه البيت شجرة من الشوك: تلمسها.. ثم لا تستقر عليها، ثم صارت الزوجة فيه مثل عقـارب الساعة.. تتحرك.. ولكن في الدائرة.. في الدار لا تتعداها.

●●●

بداية العلاج:

وعلى المصلحين أن يدركوا مـا يلي وهو: أن «الحماة» أم.. مـحكومة بغريزة الأمومة الضاغطة.. والتي لا تستطيع الإفلات من قبضتها، وإذا كان زوج ابنتها رجلاً يضاف إلى أسرتهـا.. طائرًا في منظومة «السرب» فإنها لا تنسى.. ولا تستطيع أن تتناسى أن زوجة ابنهـا التي أخذته منها طرحت من مجموع الأسرة واحدًا.

ومن أجل ذلك.. فإن مفتاح القضية ليس في يدها.. وإنما هو في يد الزوجة الشابة ـ في بعض الأحيان على الأقل ـ وعليها أن تدرك ما يلي:

أن الإنسان لا يشعر بقـيوده إذا تبعه من يحبه.. مـختارًا.. فإذا بدأت المقاومة .. ومحاولة البعاد.. كان الألم أشد ما يكون.. وهذا ما تخطط له «الحماة» الناشز.. في مواجهة الزوجة العاجزة!!

لقد خطبت لابنها فـعلاً.. لكنها لم تكن تتصـور أن عقبى الزواج أن

تخطفه غيرها!

إنها ترى.. وتسمع ما لم تكن تحب أن ترى وأن تسمع. وهناك في أعماقها معركة بين فكرها.. ووجدانها.. بين عقلها وقلبها.. وهي مصرة على أن تحسم المعركة لحسابها ولو على أنقاض ولدها.. فلنكن منها.. على حذر!!!

نختلف.. وفي النهاية نأتلف

يقول الله (عز وجل) في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا..﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

يقول الشاعر المسلم في وصف بيت تدبره حرة مؤمنة:

ودونك بيتًا.. قد تحلى بالنهى ... كما يتحلّى معصم بسواره

إذا لم يكن في منزل المرء حرة ... تدبره.. ضاعت مصالح داره

وقد تختلف الأمزجة يومًا.. ولكن الزوجة الحرة تتنازل عن رغباتها في مرضاة بعلها. ألا وإنها هذا الغراب الأعصم:

وهو الأبيض الجناحين.. فلا يكاد يوجد في هذا الزمان. وقد أشار إلى ذلك قوله (ﷺ): «ألا أخبركم برجالكم في الجنة..؟».

ثم قال عن الزوجة المؤمنة الوفية: «ودود ولود إذا غضبت أو أسيء إليها أو غضب زوجها قالت: هذه يدي في يدك لا أكتحل بغمض حتى ترضى» [رواه الطبراني]..

وموقف أمهات المؤمنين هنا يذكرنا بهذا الصنف النبيل وما يترتب عليه من عطاء جزيل. وذلك قوله (تعالى): ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩].

يقول الرازي: والأجر العظيم: الكبير في الذات «الحسن في

الصفات»، الباقي في الأوقات، وذلك لأن العظيم في الأجسام لا يطلق إلا على الزائد في الطول وفي العرض وفي العمق. حتى لو كان زائدًا في الطول يقال له: طويل، ولو كان زائدًا في العرض يقال له: عريض وكذلك العمق.

فإذا وجدت الأمور الثلاثة قيل عظيم فيقال: جبل عظيم إذا كان عاليًا ممتدًا في الجهات.. وإن كان مرتفعًا فحسب يقال: جبل عال.

إذا عرفت هذا.. فأجر الدنيا في ذاته قليل.. وفي صفاته غير خال من صفة قبح، لما في مأكوله من الضرر والثقل، وكذلك في مشروبه وغيره من اللذات.. وهو غير دائم، أما أجر الآخرة: فكثير.. خال عن جهات القبح.. دائم.. فهو عظيم. وهذا الإغراء الواضح الداعي إلى إيثار المتعة الباقية.. نجاة بالأسرة.. ثم بالأمة من الترف وغوائله.. وما يجره عليها من ويلات تدخل بها نار الدنيا.. قبل نار الآخرة.

والموقف في جملته دعوة إلى الصبر على مرارة العيش.. ثم التضحية بالمقدور عليه من المباحات.. ادخارًا لما تحتاجه الأمة من خدمات:

يقول الله (تعالى): ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

تشير الآية الكريمة إلى لون من الظلم.. ظلم الناس أنفسهم:

أ- حين أهملوا مرافق الأمة فعطلوها. ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾.

ب- وحين انغمسوا في الترف إلى آذانهم ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾.

وكيف جر ذلك عليهم الخراب.. فخر عليهم السقف.. ثم كانوا أثرًا بعد أن كانوا عينًا. وهكذا يفعل الترف بأهله وهو الداء الذي يراد حماية الأسرة من تبعاته.

قالت السيدة عائشة (رضي الله عنها) مؤكدة هذا المعنى: إن أول بلاء حدث في هذه الأمة.. بعد وفاة نبيها (ﷺ) هو: الشبع، فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم وضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم.

فانظر كيف خربت الشخصية أولاً.. ثم كيف كان الجزاء بخراب الديار.. وأي خراب للشخصية أمر من سمن الأبدان.. ومرض القلوب.. وانطلاق الشهوة كالفرس الجموح! فإذا أرادت أمة صلاح حالها ومآلها.. فلتغير نفوسها فإن التغيير النفسي مقدمة للتغيير الاجتماعي ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

●●●

بيضة الديك:

لقد كانت رغبة أمهات المؤمنين في العيش الرافه.. كانت بيضة الديك.. لم يعدن إليها أبداً راضيات بما هن فيه من بساطة فيها الخير كله.. وذلك ما يشير إليه قولهن: (والله لا نسأل رسول الله (ﷺ).. بعد هذا المجلس ما ليس عنده).

وها هي ذي عائشة أم المؤمنين(رضي الله عنها) تؤكد أن ما حدث كان هو الاستثناء من قاعدة الرضا بما قسم الله.. وذلك قولها في الموقف الآنف: (إن أول بلاء حدث في هذه الأمة.. بعد وفاته (ﷺ).. هو: الشبع).

●●●

مع التوحيدي:

ولنا هنا وقفة مع التوحيدي في «الإشارات الإلهية» يهيب بالمؤمن أن يؤثر الآخرة على الأولى مستعيناً بربه الذي كان رضاه أعظم من كل متاع زهرة الحياة الدنيا.

قال: «اللهم أنت بـنا أبصر ونحن على مصـالحنا أقصر فـرقنا بكرمك إلى حظيرة القدس.. واسقنا بكأس القـبول شراب الأنس، فإنك إن فعلت ذلك بنا.. لم نظمأ بعده أبدا.. ولم نؤثر عليك أحداً».

قبل أن يدفع الأطفال
«فاتورة الحساب»

يقول الله (عز وجل): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ...﴾[الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

استجابت أمهات المؤمنين لنداء الواجب قانتات تائبات.. وكان هذا العود الحميد إلى الحق بعدما تبين.. كان رسالة موجهة إلى بعض الأزواج اليوم «ليوفقوا أوضاعهم» طبق سنته (ﷺ) وبخاصة في تلك البيوت التي حولها الانفعال إلى ساحة للقتال.. أو حلبة مصارعة تنتهي حتمًا بهزيمة الفريقين.. فلا غالب في معارك الأزواج ولا مغلوب، وإنما المغلوب حقًا هم الأطفال.. الذين يدفعون «فاتورة الحساب» في قضية ليسوا أطرافًا فيها؟!

ولا نستبعد ،الخلاف بين الزوجين أبدًا.. لأن الاتفاق على «كل شيء» صلح قصير الأمد!

ولكن الخلاف عندما يكون على عرض الدنيا.. فإننا محتاجون إلى رجل مثل «التوحيدي» لنستمع إلى موعظة منه بليغة.. حبذا لو أنصف الأزواج إلى ما وراء سطورها.. والتي تؤكد أن الحياة بسيطة.. ولكننا نعقدها بأطماعنا.

يقول التوحيدي:

(آه على أقدام كانت تستثقل حمل رقيق النعال، كيف تطيق غدًا ثقل القيود والأنكال؟ «القيود الشديدة».

آه.. على جنوب: كانت تستشخن لبس الحرير.. كيف تصبر غداً على مقاساة لهب السعير؟

آه.. على خدود في ظلال الترف.. تتدلل ناعمة.. كيف تكون غداً في أطباق الثرى ساهمة راغمة.. آه على أجساد في حلل الدنيا مصونة.. إذا أصبحت غداً في أثناء الجنادل مهينة مدفونة.. آه على من قد غدا في دروب المعاصي مشتبكًا.. كيف يكون إذا وقف بين يدي الملك الجبار مرتبكًا.. عجيب لقلب سكنه عقل أو اطمئن به فهم أو سنحت فيه فطنة، أو هب فيه انتباه.. أو ألم به رأي: كيف ركن إلى الدنيا جهلاً ورضي بها وطنًا.. ووجدها من الجنان بدلاً.. وغفل عن صنيعها بمن مضى وخلا.. أفلا يعتبر المرء اللبيب بما يرى من تنعيمها وورود الفجائع على أهلها: من علة مفاجئة. أو ميتة قاضية. أو دار بعد ساكنها موحشة. أو حال بهولها مدهشة؟! قد كدر منها المنون.. ما صفا.. وتركها ريب الزمان قاعًا صفصفا.

يا هذا: شمر، وخذ في الجد.. فالأمر والله حق.. أتدري ما الأمر؟!

الأمر هو: الرحيل عن هذا الموضع النابي بأهله.. المزعج.. إلى محل آخر.. إما أن يكون أنعم منه.. وإما أن يكون أنبى منه.. وبين الرحيل والوصول.. وحشة الفراق وبلوغ الروح التراق.. والتفاف الساق بالساق وحشرجة الصدور وتسكاب المآق.. يا عاشق الدنيا.. لا تجهلن فيمن جهل.. فكل ما أحيا.. قتل].

ولأن استدبار الدنيا.. واستقبال الآخرة.. عسير لأن الدنيا حاضرة.. والآخرة مغيبة.. فقد شغلت هذه القضية بال الصالحين.. الذين ما فتئوا يلومون أنفسهم على ما قدموا.. حتى قال قائلهم:

قلبي إلى مـا ضـرني داع ... يكثـر أحـزاني وأوجـاعي
كيف احتـراس من عـدوي إذا ... كـان عـدوي بين أضـلاعي

وقال آخر زائداً على هذا:

هـذا فـؤادي.. وطـرفـي ... قـد سـبـبـا لـي حـتـفي
فكيف أحـذر يـا قـوم.. ... مـن فـؤادي وطـرفـي؟!

ويعلق التوحيدي هنا قائلا: صدق الرجلان:

[أما الأول.. فوجد عـدوه نفسه فاستصعـب الخلاص منه.. ولعمري هو صعب. وأما الثاني.. فجمع بين فؤاده وعـينه ثم استغاث منهما، وذكر أنهما قد أضافاه إلى حتفة.. وهذا كله من الكسل.. وإلا لو صدقت النية، وجدت المرة ـ القوة ـ وخلصت العزيمة لكان قهـر القلب إذا عتا.. سهلاً.. وغض العين إذا طغت قريبًا..ولكن الـنيات مدخولة، والعزائم ضعـيفة.. والتمـني غالب.. والنفس مـسوفة.. والـطباع خوارة. وهكـذا الإنسان إذا وكل إلى حوله الضعيف.. ورأيه السخـيف، وقد عصم الله (تعالى) أمهات المؤمنين بما أنزل من آيات بـينات.. فكن حجـة على كل عـاشق للدنيـا.. كيف صار عبـدًا لها لا تقف آمانيه عند حد.. وكلما طلب نعـمة كان شأن دنياه التسويف على حد قول «أبي حنيفة الصوفي» لما قيل له كيف أنت قال: كلما قلت: غدًا موعدنا.

ضحكت هند وقالت: بعد غد!

ولنتـرك العـشـاق.. حـيـارى في الآفـاق.. ثم لنعش مع أمـهـات المؤمنين.. وكيف تنزل الوحي غضًـا طريًا آخذًا بأيديهن إلى الكمال، وذلك

قوله (تعالى): ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٠، ٣١].

والفاحشة هنا هي: طلب مـا لا ينبغي مما يؤذي رسول الله (ﷺ) وإنما كانت مضاعفة العذاب نظرًا لحساسية موقعهن، وعظم مسئوليتهن.

نعمة التوفيق

تعني كلمة «الزوج» المكمل للفرد.

ولا يكون مكملاً إلا إذا كان موافقًا.. وهكذا كانت استعمالات القرآن الكريم لهذه الكلمة.. والتي تدل على.

التوافق في الطبع.. والمشاكلة في الدِّين.. والموافقة في المزاج.

يقول (عز وجل): ﴿فلا تَعْضُلُوهُنَّ أن ينكحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إذا تراضَوْا بَيْنَهم بالْمعْروف﴾ [البقرة: ٢٣٢].

وهو خطاب إلى المجتمع يقول له:

إنه إذا كان هناك توافق وتشاكل بين الطرفين. فلا تقفوا حجر عثرة في الطريق.. وَدَعُوا الموافق يلتقي بموافقته. دعوا السالب يلتقي بالموجب.. ليضيء المصباح!

يوضح هذا المعنى قوله (عز وجل):

﴿فيتعلَّمون منْهما ما يُفَرِّقُون به بيْنَ الْمَرْءِ وزَوْجه﴾ [البقرة: ١٠٢].

فالتعبير بالزوجة هنا في مجال التوافق بين الزوجين.. وأن محاولة فكٍّ هذا الارتباط ظلم.

ويقول (عز وجل):

﴿يا أيُّها النَّبيُّ قُل لأزْوَاجك ..﴾ [الأحزاب: ٥٩]

ومعلوم أن التوافق بين النبي (ﷺ) وأزواجه كان على غاية ما يكون الوئام.. ومن ثم عبَّر.. بأزواجك.

●●●

ثم اقرأ قوله (تعالى):

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ [التحريم: ١١].

إنها مجرد «امرأة».. لأنه لا توافق بينها وبين زوجها في الدين..

وقد ضربها الله (تعالى) مثلاً.. وهي جديرة أن تكون مثلاً أعلى.. تتملاه نساء العالمين كنموذج يُحتذى..

لأنها استطاعت ـ على ضعفها ـ أن تثبت على إيمانها وهي تحت هذا السفاح الطاغية..

ويقول (عز وجل):

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ﴾ [التحريم: ١٠].

كلهن.. إمرأة.. وليست زوجة.. فالفارق هائل.. والشقة بعيدة بين الزوجة.. والمرأة.

●●●

وهذا هو الزواج:

هذا هو الزواج الدائر على عنصر الصراحة والموافقة.. أما التسرع في الإختيار طمعاً في الدنيا.. فلا خير فيه:

لا خير في حُرٍّ يجالس حرة ... ويبيع قِرطَيها إذا هو أَعدَما

[أعدما: افتقر].

كما أنه لا خير في حياة كان من ورائها الطمع الذي يحطم جسور الثقة بين الزوجين اللذين صار أمرهما على ما يقول الشاعر:

ومما أدام الرزء: تكذيبُ صادق ... على خيرة منا.. وتصديق كاذب

وفي هذا الجو المكفهر . . ماذا يفعل الطرف الضعيف؟

مـاذا تفـعل الزوجـة التي باتت ـ وفـي بيت الزوجـيـة ـ ذلك الطائر الغريب . . والذي يعزف خارج السرب منفرداً؟!

لقد بَهَرَنا المال . . وكثرةُ الرجـال . . ولكن ظهر لنا أنه مامن بستان إلا وبه أفعى؟!!

إنه الخوف من المـستقـبل . . وسوف يتـحول هاجس الخـوَف إلى فزع يحملهـا على التآمر . . ولـو انهدم المعبـد على رءوس الجميع . . بما فـيهم أفلاذ الأكباد!

●●●

وبنفس القوة نقول مع القائلين:

أحياناً . . يتسرع الفتى في الاختبار . . قبل أن يتعمق في قراءة الواقع:

قد يأسره السمت الهادئ . . والجمال الطاغي . . ثم يلهيه عن الغوص في الأعماق .

وتكشف لك المعـاشرة أنك على بـركان يَجـدُ متنفَّسه الوحـيد فـيك وحدك . . وما زلتُ أذكر ذلك الفلاح الذكي والذي قال لولده المفتون بجمال مخطوبته:

يا بني: من أجل جارحة واحدة وهي: (وجهها) تتزوجها (كلها)؟!

●●●

إن هذا الوجه الخـادع . لَهُوَ ذلك «الفخ» المنصـوب في الغابة . . وأنت ذلك الطائر البرِّي الذي انزلق إلى مصيره . . بالطُّعم الذي بهره فأسكره .

●●●

ولقد قال الحكماء:

إن البيـت والمال.. ميراث الآباء.. أمـا الزوجة: فـمن عند الرب.. ويعني ذلك أنها هبة.. نعـمة ينبغي أن نشكرها بحسن اختـيارها.. وقد لا تكون جمـيلة.. ولكنها تعـوِّضك بالمودة.. ورعاية حـدود الله (تعالى).. ومع الأيام.. سـوف تجتـمع خيـوط الود.. لتصنع حـبلاً قـوياً يربط على القلوب.. أما من لا تُوافق ، ولا تفارق.. فهذا هو البلاء المبين!

وقد يشتد حبها مع هذا العـذاب.. ولكنه سيفسر في النهاية عن شدة الخوف على ضياع من تحب!

وعندئذ سوف تكون الحياة كزهرة يانعة.. سرعان ما تجف أوراقها كما تجف أعشاب الحقول!

●●●

وإذن.. فاظفر بذات الدين

ألا ما أصدق ما قيل:

إن المرأة الجميلة.. ليست دائماً فاضلة

أما المرأة الفاضلة.. فهي أبداً جميلة!